

النحت السومري

للسير أكرم سُكري

ملاحظ مختبر المتحف العراقي

اكتشفت في العشر السنين الاخيرة في العراق تماثيل كبيرة العدد اُنارت اعجابنا الى حد بعيد بتأثيرها المفاجيء في احساسنا ولاقتربنا من فهمنا لمدلول الجمال ، وليس لقدمها ولا لانتسابها الى احد المذاهب الفنية ولا لمصدرها ، علاقه بهذا الاعجاب ، اما تمتاز هذه التماثيل بايقاظ حسنا الفنى وهى مجردة من كل هذه التأثيرات حتى تأثير الدراسة التى تتعلق باحوالها . ان هذا الكنز نتاج لمدينة كانت طلعة فى تاريخ التقدم الحديث . وهذه القطع نفسها تشهد بان النحت ارتفع الى المستوى الفنى المعروف اليوم ، وكان لها تأثير كبير فى فن ومدينة الاقطار الاخرى والعصور المتأخرة ، فى حدود (٣٠٠٠ ق م) . خطأ الانسان خطوته الواسعة فى فن النحت حين نحت اول مرة تمثال انسان مجسما كاملا من الحجر ، غير ان الصلة بين هذه المنحوتات من الحجر (التى تبلغ حجمها نحو من ربع أو ثلاثة أرباع الحجم الطبيعى أحيانا) وبين الصور الصغيرة المصنوعة من الطين أو العاج أو العظم التى يعود تاريخها الى دور ما قبل السلالات مفقودة تستحق البحث ، على اننا ينبغي لنا أن نذكر ان التقارب بين مذهب النحاتين المصريين ومذهب النحاتين العراقيين فى العصر نفسه ، فى نحت الاشخاص ، مجسمة ، قد يحدث بالاتفاق . غير ان المذهب المصرى كان أوضح فى طريقته من طريقة المذهب العراقى ، وذلك لان اسلوب النحت فى مصر قد عبر تعبيراً صادقاً فى هذه الفترة عن الثقافة التى نماها هناك الاتحاد السياسى الذى أقامته الاسرة الاولى ، وساعد على ذلك موقعها الجغرافى ، على حين أن النحت فى وادى الرافدين لم يكن واضحاً ذلك الوضوح وذلك لفقدان الوحدة السياسية بسبب ان لم يكن حواجز طبيعية تحميه من الغزاة ، فكان التقدم الثقافى يختلف فيه اختلافاً كبيراً عن مصر . ومع وجود هذا الاختلاف كان تشابه قوى فى تقدم النحت فى هذين المراكز الثقافيتين المهمين ، فانا نرى نتائج متشابهة فى الابتكارات كان الفريقان قد توصلا اليها فى وقت واحد ولعل أحدهما أثر فى الآخر .

أما أول من ابتكر النحت المجسم فلا يمكن الجزم بتعيينه ، غير ان بعض الملقى فى وادى الاندس التى تشبه بعض ما اكتشف فى مصر والعراق ، تدلنا على ان بين هذه الاقطار الثلاثة اتصالاً اثر تأثيراً كبيراً فى مضمار النحت المجسم ، على ان اللقى التى اكتشفت أخيراً فى العراق قد أظهرت ما لوادى الرافدين من مجهود كبير فى هذا المضمار .

ان معظم هذه المنحوتات قد اكتشفت في تل أسسر وتل خفاجي . وهذان التلان استخرجت منهما كمية من المنحوتات أكثر مما استخرج من جميع المدن الدارسة الاخرى معا . وكان القسم الكبير من هذه المنحوتات في حالة جيدة جدا ، وكان تسلسل تاريخها مضبوطا ، فان التقدم الفني الواضح فيها قد دل على أن بداية النحت المجسم كانت في « وادي الرافدين » .

* * *

ومن المعلوم ان القرن الخامس قبل الميلاد كان وثبة في تاريخ الفن ، فقد ابتكر الفنان الاغريقي - الرسم الهندسي - علم التلاشي (١) Perspective في فن الرسم والتشيل النقشي (النحت البارز النصفي Bas Relief) ، وقدم لنا القران العضوي (٢) Organic Unity بدل القران الهندسي Geometric Unity في النحت المجسم . انه بهذا التجدد قد خالف كل ما عرف من الابداع في فن ما قبل العصر الاغريقي - فعلى حسب علم التلاشي - يجب على الفنان أن يفرض نقطة ثابتة للصورة عند انشائها ، وهي نقطة تؤخذ بالمعنى الحسابي لتيان كمتين مختلفتين بالنسبة لبعضهما ، وهكذا يحصل الرسم اليوناني على وحدة التماسك التي يتطلبها لقطعته الفنية بمجرد تعيين

(١) علم التلاشي اي المنظور Perspective - لتيسير مدلول هذا العلم لا أرى بدا من أن أضرب مثلا على ما يقصد به . فان نظرنا مثلا الى خطين متوازيين او جانبي مسطرة طويلة ، ونحن بالقرب من احدى نهايتها فانه يترأى لنا ان ذلك الغطين أكثر تقاربا في النهاية البعيدة من المسطرة منهما عند النهاية القريبة منا . وأيضاً عندما نسير في وسط شارع منبسط نرى الرسيفين اللذين على جانبيه يقتربان كلما ابتعدنا عنا حتى يكادان يلتقيان في أقصى الاق وبتلاشيان وهذه الظاهرة الناشئة عن بعد المنظور وقربه من الرائي تدعى في الفن بعلم التلاشي أي المنظور . ولقد كان الفنان قبل معرفته هذا العلم ينتج قطعته الفنية بالنسبة الى ما يعرفه من الموضوع الذي يرسمه ، ولذلك لم يكن يهتم بنسبة بعد الاجسام وقربه ، فكان الفنان الآشوري مثلا يمثل صورة الاسد البعيد بحجم أكبر من جندي قريب . وكان الملك والآله يرسمان بصورة كبيرة جدا نسبة لمن حولهما من حاشية دون مراعاة نسب حجومهم الطبيعية . وعندما بدأ الفنان يمثل الاشياء بالنسبة لقربها وبعدها أو يلحظ تضاد حجومها اذا ما ابتعدت ، أخذ أيضا يضع لذلك قوانين عديدة . فنتج من ذلك علم عندي كامل موضوعه رسم الاشياء وهي بعيدة او قريبة او هي في الفضاء أو على الارض .

(٢) ان الفنان الاغريقي حافظ في منحوتاته على تمثيل كل عضو من اعضاء الجسم بصورة متناسبة . فبهذا كان هو اول من عرف في النحت القران العضوي . اما الفنانون الذين سبقوا الاغريقين كالفنان السومري ، فلم يكونوا يعرفون القران العضوي في منحوتاتهم . بل حكمت فينا الاشكال الهندسية كالمكعب والمخروط والمنشور ، وسبب ذلك انهم لم يهتموا بتقليد الصور الطبيعية تقليداً محكماً . ولم يفتوا بتفاصيلها ، وانما كانوا يكتفون فيها بان تعبر عن شعورهم وتكون شغفا في ازلانها من الآلهة . ففتصروا جهودهم على تمثيل شخص الانسان باشكال هندسية ، فسبب ذلك تحكيم « القران الهندسي » في منحوتاته .

هذه النقطة الثابتة • وكذا النحات اليونانى استطاع أن يحصل على (وحدة التماسك) فى قطعه
باتباعه - القران العضوى - حيث تكون الاجزاء متناسبة بعضها مع بعض •

وقد أثر هذا التطور الذى حدث فى اليونان، منذ ذلك اليوم، فى التقدم الاوروبى لما درس ثانية
فى عصور النهضة الاوربية، وقد أثر أيضا فى حركة (ساقه الشعوريين Post Impressionists)
حين رفضوا - علم التلاشى - فى الرسم والقران العضوى فى النحت وهكذا تمكن الفنانون الغربيون
حديثا من التعبير عن الطبيعة بصورة فورية دون اتباع القواعد المعروفة فى علم التلاشى والقران
العضوى، وهذا هو ما كان عليه الفنان فى الفترة التى سبقت القرن الخامس قبل الميلاد حين لم يكن
يعرف - علم التلاشى - ولا قران البناء • ومن هنا تظهر الاهمية لدراسة فن ما قبل اليونان من حيث
التاريخ بالنسبة لعلم الآثار ومن حيث الفن بالنسبة الى تطوره •

أما الغاية من المنحوتات المجسمة التى ظهرت فى وادى الرافدين فيستدل عليها بالكتابات
والرموز التى على أكتاف بعضها وعلى ظهور بعض • فثلاثة من هذه التماثيل المشهورة التى ظهرت
فى تل خفاجى مكتوب على احدها كما ترجمها (الدكتور جاكسون) « اوركيال سنكو كاهن
سن واكتك ابن تى باشيش، قدم هذا الى سن » •

ويظهر من الكتابات التى على بعض التماثيل الاخرى انها كانت تقدم الى الالهة، فالكتابة التى
على تماثيل كوديا مثلا كانت توضح ان الغاية من هذه التماثيل كانت تذكير الاله بعبد المخلص الذى
قدم صورته لتكون دائما بين يدي الاله ليتذكره، وهكذا كتب كوديا على احد تماثيله « ليتكلم تماثلى
الى ملكى (الاهى) » واسماء تماثيله كانت غالبا دعاءا بين تعبيد الذى يشبه رضا الاله •

وتماثل آخر له (اللوحة رقم ٢) كان يسمى: « الى ملكى الذى بنيت معبده وعسى ان
يشينى الحياة » وهكذا ومن الطبيعى أن نستنتج ان اناسا أقل أهمية من الامراء قدموا تماثيلهم
فى حضرة الاله كما يتضح من اختلاف حجمها وانواعها وعدة المقدمة منها للمعبد •

وقبل ان ندخل فى وصف هذه المنحوتات العراقية الفريدة ينبغى لنا ان نقول كلمة على نظرية
تقدير الفن وصفات القطعة الفنية فى العراق الحديث •

يعتقد جماعة الكتاب فى علم الآثار - وهم مخطئون - ان التعبير الفنى يبدأ بجندرة الطبيعة
جندرة صرفة ومن ثم تتطور هذه الجندرة الى أيسر حالات التعبير الفنى باستخدام الاشكال الهندسية
المجردة، ونوع هذا التيسير والرجوع للاشكال الهندسية يعين اختلاف الطبقات وتعدد الاساليب •
غير ان الحالة على العكس فى منحوتات ما بين النهرين وغيرها حتى فى مصر - فاننا نعرف ثلاثة أدوار
فى الفن المصرى حين نما وتشكل بشكل هندسى ميسر ثم تحول شيئا فشيئا وصار تقليدا مقاربا

للطبيعة وكان هذا التقريب من الطبيعة مظهرا من مظاهر عصر الانحطاط .
 وفي ضوء هذه الكلمة يمكننا ان نقول ان في المنحوتات العراقية القديمة المكتشفة في تل اسمر من
 السير الفطري الفوري ما يجعلها آية فنية مقابلة للاعمال المصرية - النيلوتية - المعروفة .
 ونود أن ندرس منحوتات الكنز المكتشف في « المبد المربع » في تل اسمر ، ولنأخذ مثلا تمثال
 الاله - ابو - (اللوح رقم ١) فنرى أن جسم الانسان قد نحت نحنا سادجا بغير تقييد ،
 بأشكال تكون هندسية ولا نرى أى أدلة كانت لوصف تفاصيل ثانوية تربث بصر الناظر ، فاللباس
 مثل سداجة على هيئة المخروط المقطوع (يكون استدقاق رأسه في تماثيل اخرى اكر او اقل
 بحسب الظروف) ، أما القسم الاعلى المكشوف من الجسم فمقطعه مربع وهو حكاية لشكل الصدر .
 وفي بعض الاحيان تمثل عضلات الصدر تمثيلا مفضلا بصورة مستقلة . وفي تمثال واحد نرى خطا
 وسط الظهر يمثل المحالة يمتد من مفرق شعر الرأس الى أسفل . والشعر يمثل بجبهتين متناظرتين
 يفصلهما فرق عميق يمتد من الاعلى حتى القفا . والخطوط الافقية التي تزين اللحية وجانبى الرأس
 والخطوط المقصود بها ان تمثل الجدائل ، خططت متشبهة ، كل هذه تبرز الوجه ابرازا مؤثرا وهو اهم
 قسم في التمثال وتجعله ذا حيوية عظيمة . غير ان هذا التصرف لا ينافى الانطباع العام المستلهم من
 القران الهندسى للتمثال . ولننظر الآن الى التمثال من الجانب لتقدره حق قدره فنرى هيئة
 اللحية تتسق مع بقية أقسام الوجه وهي يشكل نضد من المثلثات منته بالفم والانف .
 ولعلنا لا نشعر بالتجريد الكامل في بعض الأقسام الأخرى الا انه عند التعمق يظهر ذلك جليا
 كما في الوجتين فانهما جردتا من تفاصيلهما حتى صارت الوجنة الواحدة تشبه الهلال في شكلها .
 وان اظهر مظاهر التجريد يتمثل في كيفية تصوير العينين المثبتين في محاجرهما ولا تكون
 ترجمة الطبيعة ترجمة مجردة أوضح من ترجمتها في العينين وأجفنهما . فلا يوجد أى تردد كان في
 التعبير وانما الوضوح والتعبير القاصد الصريح هو أول مميزات هذه التماثيل .
 ويحسن بنا ان نقول هنا ان هذه الموهبة الفنية بالتعبير بهذه الطريقة الصريحة الساذجة انما اتت
 هؤلاء القوم القدماء عن الغريزة ولم تكن نتيجة دراسة تحقيقية ثقافية .